الحصـار

أحمد عبد الرحيم

أتوضأ لأصلي، تشعر في الوضوء أنك تطهرت من عرق اليوم، وأخطائه أيضًا وصرت تشع نورًا، وقفت على المصلية ونويت الصلاة، وما أن جهرت "الله أكبر"، حتى قاطعتني يد أمسكت ذراعي، موقفة إياي!

انتفضت ناظرًا لصاحبها، إنه رجل طويل عريض، هائل العضلات، له أن يدهسني إن أراد، وجهه مزيج من ملامح عسكري حراسة على مبنى حكومي مجاور، تعوَّد النظر إليّ شذرًا لسبب لا أعرفه، وملامح رجل أعمال بغيض وشهير، أعلم سيرته القذرة، وصفقاته المشبوهة، من القريب والبعيد.

لا أدرى كيف دخل هذا الضخم بيتي، وبأي حق يلجِّمني؟ وبعد لحظة، تحول عنفه إلى لين، وإنقلبت عينيه من التبريق إلى الابتسام!

سحبنى خارج الحجرة إلى أمام تلفزيون مفتوح، موضوع مكان تلفزيوني لكن أكبر منه حجمًا، يعرض بثًا حيًا لمؤتمر يعقده مجموعة مدمنين مخدرات في كباريه صاخب، يكتظ بجيش من راقصات عاريات، ثم أتى لي من اليمين طعامي المفضل، ومن اليسار بمشروبي الأحب، رغم أننا في نهار رمضان، مشيرًا لكل ذلك بانحناءة جذع، وانفرادة ذراع، بدت كترحابٍ، أو دعوة أو – مع عودة التبريق لعينيه على نحو خاطف – أمر لا اعتراض عليه!

لم أقرب الطعام أو الشراب، و – إلى حدٍ ما – خفت من القيام في وجوده، وتأففت من النظر للتلفزيون أو سماعه، إذ أن المنطوق لم يكن إلا شتائم بالأب والأم، وتشبيهات تتعبد في البذاءة بتصوف، وحتى الكلام الجاد كان وصفًا دقيقًا لعمليات جهازيّ الإخراج والتناسل في الجسم، ناهيك عن أغنية فاجرة تدعو لحفلة جنس جماعي، وشد للبودرة البيضاء من الأنوف كل نصف دقيقة تقريبًا.

ذابت ساعة الحائط، وتدلى منها سائل أسود لزج، أغرق الشقة في عمى حجب عني رؤية سجادة الأرضية، وأحذيتي، ماسحًا أقدامي في الطريق، ارتعبت تسربه إلى خارج العمارة من الشرفة المفتوحة، وسورها الحديدي، سيُغرِق الحارة أيضًا وسيطمسها بسواده الجهنمي!

إقترب موعد الصلاة التالية، لا تأسى على صلاة سأضطر لقضائها بسبب هذه الظروف التي لا أملك إلا تناسيها وأنا أعيشها، يارب ارحمني، ارحمني يارب !

علت التأوهات الجنسية من التلفزيون، لأستغفر الله، متمسكًا بلويّ رقبتي ناحية الأرض، كصورة جندي إسرائيلي أمام بندقية مصرية في عز الانتصار، انهرست معدتي تحت وطأة القرف، أو الذل، ألوان برائحة كريهة، لم أشمها في الحمامات العمومية، خرجت من الشاشة في هيئة أسياخ توالت على اختراقي بعنوة لم أتصورها، أنجبت آلامي ألمًا جديدًا، لكن لم أنزف، لماذا لا أنزف ؟! يبدو أن هذا ليس حلمًا فاسدًا، أوكابوسًا آخر، لكن متى سأشهد نهايته ؟!

عجزت عن إطفاء التلفزيون، أو الهرب من الرجل الذي انشغل بتلميع مسدسه بالسائل الأسود، فأغمضت عيني، وحلمت بمشاهد من فيلم رومانسي قديم، وزهرة منحتها لي حبيبتي قبل أن ترحل، وعطر كان يفضله أخي قبل استشهاده، محاولًا التمتمة بدعاء ذي النون بعد أن ابتلعه الحوت، إني حتى لا أتذكر بدايته، كل ما أتذكره هو جملة "..إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ"!